الدوق فوراً ودلف الى غرفة ثانية مع أمين سرّه. في تلك الأثناء كانت الدوقة قد أرسلت من يستعلم عما يفعل الدوق فأبلغها الحاجب ان سموّه يتحدث الى (بنڤنوتو) ويباسطه. وإنه في أفضل حالاته. لما أُبلغت الدوقة بهذا أقبلت حالاً حيث كنتُ. ولما لم تجد الدوق فقد جلست على مقربة وراحت تتابع عملنا برهةً. ثم إنها توجهت اليّ بكلّ لطف وأرتني عقداً منظوماً من حبّات اللؤلؤ الكبيرة الحجم النادرة المثال حقاً وسألتني عن رأيي فيها، فقلت انها في غاية الجمال والنفاسة فقالت سموّها:

- أرغب في أن يشتريها الدوق لي، ولذا أرجو منك يا بنڤنوتو العزيز أن تمتدحها له بأفضل مايحضرك من المديح.

لما أدركت هدف الدوقة صارحتها برأيي الحقيقي بكلّ إحترام وتجلّة، فقلت:

- سيدتي، كنت أظن اللآليء ملكاً لك، لذلك لم يكن من الأدب في شيء أن أقول مايجب عليّ قوله فيها بعد علمي أنها لا تعود لك، ينبغي لي أن أصارحك ياصاحبة السموّ بأن معرفتي بمثل هذه الأمور تكشف لي عن عيوب كثيرة في هذه اللآلي وأنا لهذا لا أنصحك بشرائها.

فأجابت قائلة:

- إن التاجر يعرضها عليّ بستّة آلاف كراون ولولا هذه العيوب الصغيرة لأربَت قيمتها على إثني عشر ألفاً.

وفي سبيل الرد قلت: لوكان العقد خالياً من كلّ عيب لما نصحت أحداً بشرائه بمبلغ يزيد عن خمسة آلاف. لأن اللآليء لاتعدّ من قبيل الجواهر فهي عظام سمك تبلى بتعاقب الزمن. إلاّ أن الألماس والزمرد والياقوت- ولا أستثني الزفير منها لاتشيخ ولايعتورها تغيّر، وكلّها جواهر وأنا أحبّذ شراءها. هذا ما قلته للدوقة فقد كنت دائماً أعشق الصراحة وأبغض الكذب، والآن أراه يُفرض عليّ فرضاً. على اني لم أشأ أن أفقد حظوتي عند هذه الأميرة الجليلة القدر، فتناولت تلك اللآليء اللعينة وانا أرزح تحت همّ ثقيل. وتوجهت الى الجناح الاخر حيث ذهب الدوق والعقد في يدي. فما وقع نظره عليّ حتى هتف:

- آه، بنڤنوتو ماوراءك؟

أظهرت له اللآليء وقلت:

- مولاي جئت أعرض عليك منظومة من اللآليء في غاية الجمال. انها نادرة المثال في الواقع. ولا أعتقد أنه يمكن جمع مثل هذا العدد منها لقلادة خير منها. فإبتعها يامولاي. ان العقد هو فلتة في الواقع.

أجاب الدوق على الفور:

- ليس في نيتي شراءها. فهي لاترقى الى ما زعمت لها من الأوصاف والقيمة ولا هي بالنفاسة التي ذكرت، وقد سبق لي أن إطلعت عليها فلم تثر إهتمامي.

قلتُ:

- عفواً يا مولاي. فهذه اللآليء هي أبدع بما لايقاس من أي لآليء إنتظمها عقد.

في تلك الأثناء كانت الدوقة قد تركت مجلسها ووقفت خلف الباب تتسمع الى ما أقول. وبعد أن ذكرت آلافاً من الأشياء الأخرى التي لم أدون هنا إلاّ القليل منها. نظر الدوق اليّ نظرة مودّةٍ ونطق بالملاحظة التالية:

- أي بنڤنوتو العزيز، ليس بخفيّ عليّ مبلغ خبرتك وحسن إطلاعك على هذه الأمور. فلو كانت هذه اللآليء تمتاز بكلّ المزايا التي عزوتها اليها لما ترددت في إقتنائها والأمر لديّ سواء أإرضاءً للدوقة أم لمجرد إقتنائها والواقع هو إني أريد أقتناء مثل هذه الأشياء لا إكراماً لخاطر الدوقة وحدها، بل لعلاقتها بما أتخذه من إحتياطات لضمان مستقبل أولادي وبناتي.

بعد أن بدأت في حشد الأكاذيب، لم أجد بأساً في أن أتبعها بأخرى وأخرى وبجرأة محاولاً جهدي إكساءها ثوب المعقول لأحمل الدوق على الإيمان بما أقول. على إني كنت متوقعاً أن تخف الدوقة الى نجدتي عند حاجتي اليها. وكانت قد وعدتني بمائتي كراون بعد تمام الصفقة. إلاّ أني بداعي الحيطة والأمان- كنت قد قررت في نفسي وعزمت عزماً أكيداً على أن لا ألمس كراوناً واحداً كيلا يتصور الدوق بأني مافعلت ذلك إلاّ بدافع الجشع.

راح الدوق يخاطبني بكلّ رقة، قال:

- أجل إني أعرف مبلغ خبرتك في هذا. فإن كنت رجلاً نزيهاً، وهذا رأيي فيك دائماً، فقل لي الحقيقة الآن.

إحمرّ وجهي خجلاً وقلت وعيناي مغرورقتان بدمعي:

- مولاي. لو قلت الحقيقة لسموّك فإني سأجعل من سموّ الدوقة خصماً لدوداً وهذا ماسيرغمني على الرحيل من فلورنسا. ولن يعتم أن يهاجمني اعدائي بخصوص (پرسيوس) الذي واعدت به مدرسة فناني سموّك الشريفة. لذلك أتوسل بسموّك كي تبسط حمايتك عليّ.

بعد ان تفهم الدوق مصدر حراجتي وإضطراري الى إتخاذ مثل هذا السلوك قال لي:

- إن وضعت ثقتك بي، فلا حاجة تدعوك الى القلق او الخوف من أي شيء.

فعدت اقول له:

- لكن فكّر يامولاي. مالذي يحول دون علم الدوقة بما جرى؟

رفع الدوق يده كما هو الحال في أخذ العهد والقسم وقال:

- ثق إن ماتقول سيبقى سراً دفيناً.

وعلى الإثر وإعتماداً على كلماته النبيلة أخبرته بالحقيقة من وجهة نظري وقلت إن اللآليء لاتسوى أكثر من ألفي كراون.

حسبت الدوقة أننا فرغنا من الحديث. إذ كنا نتحدث بصوت خفيض على قدر الإمكان. فأقبلت علينا تقول للدوق:

- أرجو أن تتكرم عليّ ياسيدي بشراء هذا العقد اللؤلؤي. لأني أرغب فيه كثيراً. وصديقك بنڤنوتو يؤيد نفاسته وقد قال انه لم ير لآليء بمثل جمالها.

فقال الدوق:
- لا أريد شراءها.
- لماذا لايريد سموّك أن يسرّني بشراء العقد؟
- لأنه لا يسرّني أن أبدد مالي.
زادت الدوقة في إلحاحها وقالت:
- لكن ماذا تعني بقولك "أبدد مالي" بعد أن أكدّ لي صديقك بنڤنوتو الذي يستحق ثقتك بجدارة- بأنها صفقة جيدة وان كلّفت أكثر من ثلاثة آلاف كراون؟
وهنا لم يسع الدوق إلاّ أن يقول:
- سيدتي، ان صديقي (بنڤنوتو) هو الذي قال لي بأني أبدد مالي بشرائها لأن اللآلىء ليست كروية ولا متساوية الحجوم وإن عدداً منها قديم. وكدليل على هذا، أنظري هذه اللؤلؤة والى هذه... أنظري هنا... وهنا. كلا إنها لاتصلح لي.

وفيما هو في هذا، رشقتني الدوقة بنظرة شزراء حاقدة إرتعدت لها فرائصي. وبإيماءة تهديد من رأسها تركتنا ومضت.

كان الشعور العفوي الذي غشيني هو أن أفرّ بعيداً ناجياً بجلدي. وان أنفض عنّي غبار إيطاليا الى الأبد. ثم لاح لي (پرسيوس) وقد أشرف على التمام. فترددت في الرحيل قبل عرضه لكنك ياقارئي العزيز، لا أخالك إلاّ أدركت خطورة الموقف الذي وجدتني فيه.

أمر الدوق حرس الباب بإفساح السبيل لي إليه أينما كان موجوداً. وأمرت الدوقة الحرس نفسه بأن يطردوني كلّما شاهدوني في القصر. فكانوا نتيجة ذلك يتركون مواقع حراستهم ويطردوني خارجاً إلاّ أنهم كانوا يحاذرون من أن يحصل هذا على مرأى من الدوق، لأنه كان سينادديني لو لمحني قبل هؤلاء الأوغاد فيشير عليّ بالدنو منه.

في أثناء ذلك إستقدمت الدوقة الوسيط في محاولة إبرام صفقة العقد وهو نفس (برناردو) الرجل الذي كثيراً ماشكت لي مبلغ كسله وعدم صلاحه لأي شيء وإستنجدت به لمساعدتها في حمل الدوق على شراء العقد، مثلما كانت قد إستنجدت بي. فقال لها مؤكداً:
- سيّدتي اعتمدي عليّ.

توجه العلج الى الدوق والعقد في يده. وما إن وقع عليه نظر الدوق حتى أمره بالإنصراف. وعندها أطلق العلجَ الكبير شخيراً من أنفه القبيح الشبيه بنهيق الحمار وقال:
- عفواً مولاي، إني أتوسل إليك بأن تشتري العقد لتلك السيدة المسكينة المتلهفة الى إقتنائه. إنها سوف تنفق آخر أنفاسها كمداً إن لم تظفر به.

وإستمر يضرب على هذه الوتيرة السمجة الحمقاء حتى عيل صبر الدوق، فإنتهره قائلاً:
- أخرج وإلاّ نلت منيّ لكمة.

فما كان من الوغد الكبير، وهو يدرك جيداً ماهو مقدم عليه وبه سيتمكن- سواء لديه أبتورم خديه

أم بغنائه (فرانچينيا الحلوة[٩٣])- من إقناع الدوق بعقد الصفقة فينال الحظوة عند الدوقة فضلاً عن عمولته التي قد تبلغ بضع مئات من الكراونات. فنفخ خدّيه وهم به الدوق فأهوى على وجهه القبيح بعدة لكمات القوية، وكان يريد التخلص منه ولذا كال له ضربات موجعة غير عادية، بلغت من الشدّة إن إحمرّ لها خداه وإستدرّت الدموع من عينيه. بعد هذا توجه بالقول للدوق:

- تأمل يامولاي! تأمل خادمك المخلص كيف يحاول جهد إمكانه، كيف إنه إستعد لتحمّل أي شكل من سوء المعاملة في سبيل إسعاد السيدة المسكينة.

والى هنا كان هذا الأخرق قد إستنفذ كلّ صبر الدوق فعلاً، لكن بسبب اللكمات التي ذاقها منه، وللحب الذي يكنّه للدوقة بحرصه على إرضائها، قال فجأة:

- أخرج من هنا وإذهب الى سقر فإبتعها. إني مستعد لتنفيذ كل طلب للسيدة.

من هذا يتبين للمرء الأساليب التي يسلكها سوء الحظ ضد إنسان بائس والطريقة الحقيرة التي ينال بها الوغد الحظوةَ. لقد فقدت إعتباري عند الدوقة بالتمام. كما كدت أفقد إعتبار الدوق نتيجة ذلك. أمّا (برناردو) فقد ربح عمولة دسمة فضلاً عن رضاهما. أجل ليس بكاف نجاح المرء أن يكون نزيهاً ذا فضيلة.

*** *** ***

في ذلك الزمن نشبت نار حرب (سيينا) وقرر الدوق تحصين المدينة. فوزع واجبات تحصين الأبواب على نحّاتيه ومهندسيه. وأنيط بي باب (پراتو) والباب الصغير المؤدي الى نهر (آرنو) والقريب من المرج على الطريق المؤدية الى الطواحين. وكلّف (الفارس باندنللو) بواجب تحصين باب (سان فرايانو San Fraino) وأودع أمر تحصين باب (سان پيترو گاتولّينو San Pietro Gattolino) الى (پاسكوالينو دا انكونا Pasqualino d'Ancona). وأُعطي (گويليانو باچيو دانيولو Guiliano Baccio d'Agnolo) وهو حفار على الخشب واجب تحصين باب سان جيورجيو San Giorgio وأوكل لـ(پاتريچّينو Patriccino) النقاش على الخشب باب (سانتو نيكولو Santo Nicolo) وعهد الى (فرانشسكو دا سانگالو Francesco da Sangallo) النحّات المعروف بـ(مارگولا Margolla)[٩٤] بباب (سانتا كروچي Santa Croce) والى (جيوڤانباتيستا Gio-vanbatista) المعروف بـ(تاسو) بباب (پنتي Pinti). الى جانب أبواب وحصون أخرى كلّف بها مهندسون مختلفون لا أتذكرهم وليس لأسمائهم شأن هنا.

قام الدوق- وأنا أشهد للرجل بالكفاءة حقاً- بجولة تفقدية في المدينة وبعد أن أجرى تفتيشاً عاماً وإستقرّ على رأي معين إستدعى (لاتانزيو گوريني) أحد صرافيه وأمره بإعداد تصاميم لمختلف الخطط

(٩٣) لم أهتدِ الى عنصر الفكاهة في تعبير چلليني هنا ولابدّ أنّ المقصود هو أغنية شائعة فيها توسّل وإتضاعٍ من حبيب لحبيبته ولم تسعفني أية ترجمة من الترجمات التي إعتمدتها بالتفسير.

(٩٤) هو غير گويانو دي سانگالو الذي ساهم مع رفائيل في هندسة كنيسة بطرس الشهيرة، وغير انطونيو دي سانگالو الذي ابتدء في تشييد قصر فارينزي. وقد ورد ذكرهما في حواشٍ سابقة وربما كان هذا إبناً للأول أو أخاً للثاني أو قريباً لهما فالثلاثة هم مواطنون فلورنسيون. [حاشية مكدونالد].

التي إرتآها لتحصين الأبواب، ولما كان (لاتانزيو گوريني) يهوى مثل هذه الأشغال فقد قام بتهيئتها. وبعث الدوق لكلّ منا بالتصاميم التي تتعلق بما يخصّه من عمل. وبتأملي التصميم الخاصّ بي حكمت بانه غير صحيح من كل وجه فضلاً عن كونه غير ملائم فرحت ابحث عن الدوق ومعي التصاميم وقصدي أن أشير الى النقص والعيوب فيها. لكن ما إن هممت بالكلام حتى إلتفت الدوق اليّ هائجاً وقال:

- بنڤنوتو! عندما يكون الموضوع متعلقاً بالتماثيل فأنا أنحني خاشعاً لخبرتك. أما في هذه الأمور فدعني وشأني. طبّق التصميم الذي وصلك ولا تزد.

رداً على هذه العبارات الغاضبة اجبت بألطف وأرق ماحضرني:

- لكني يامولاي تعلمت منك حتى في فن النحت. ذلك لأننا دوماً نتشاور فيه ونخوض في عبابه الرحب. فبنفس الروح وبخصوص تحصين مدينتك وهو أمر يفوق النحت أهمية، اضرع الى سموّك المعظم ان تتنازل فتصغي اليّ. وبنتيجة المناقشة سيكون أسهل على سموك ان ترشدني الى الطريق الذي يجب عليّ سلوكه.

بعد هذه العبارة المقتضبة الرقيقة، شرع الدوق يبحث معي بكلّ طيبة خاطر، فبرهنت لسموه بالحجج الدامغة وبكل وضوح الأسباب التي تجعل التصميم المعطى لي غير ذي فائدة.

بعد هذا قال:

- اذهب واعمل تصميماً خاصاً وسأرى رأيي فيه.

فقمت بعمل تصميمين لتحصين البابين متبعاً في ذلك المباديء الصحيحة وجئت بها الى سموه. وكان قادراً على التفريق بين المبدأ الصحيح وبين المغلوط، فقال بإرتياح:

- اذهب طبّق تصميمك فهو واف بالغرض وسأقتصر عليه.

فأسرعت الى الموقع وباشرت العمل بجدّ ونشاط.

كان يقوم على حراسة باب (پراتو) كاپتن لومباردي. رجل متين البناء شديد العضل قدر ماتتصور. الى جانب فظاظة لاتُحدّ وجهل مطبق وغطرسة لاتُطاق. خفّ هذا القائد يسألني عمّا أنا في سبيله. فبسطت أمامه تصاميمي بكلّ أدب وبذلت جهداً كبيراً في محاولة افهامه الغرض من الإجراءات التي سأقوم بها، إلاّ أن هذا الحيوان ظلّ يهزّ رأسه ويتململ ويلتفت يمنة ويسرة واضعاً ثقل جسمه على هذه القدم مرة وعلى تلك مرّة أخرى وهو يبرم شاربيه ويجذب حافة قبعته فوق عينيه ويجمجم في الوقت نفسه:

- بحق الشيطان، ما الغرض من هذا كله؟

وأنا مشغول بشرحي دؤوباً. الى أن أفقدني سلوك هذا الأهبل صبري، فقلت:

- حسن إذن، دع المسألة لي فأنا أعرف بالغرض من هذا كلّه.

ثم أدرت له ظهري معتزماً الإنصراف الى عملي. فأتى الرجل بحركة من رأسه تنم عن الغيظ ومدّ يده اليسرى الى قبضة سيفه وجرّد نصله من الغمد قليلاً ثم قال:

- مهلاً يا معلمي، أتريد إذن أن تثير شجاراً على هذا؟

فإستدرت اليه وقد فار دمي. في الواقع إنه إستفزني.
أجبته قائلاً:
- إن قتالك سيقتضي جهداً أقل من إقامة التحكيمات لهذا الباب.

وبومضة عين شدّ كلّ منا يده على قبضة حسامه لكن فوجئنا بجمع من الناس الطيبين يحيطون بنا قبل أن نستلّ سلاحينا، هم خليط من مواطنينا الفلورنسيين والسعاة والمراسلة وما إليهم. وتوجه اليه معظمهم باللوم والتوبيخ قائلين انه المذنب واني رجل معروف ذو مقام، وانه اذا سمع الدوق فسيقع في مأزق. وبنتيجة ذلك تولّى عنيّ الى شؤونه وتركني حراً أقوم بتحصيناتي. وبعد أن أكملتها توجهت الى الباب الآخر وهو الباب الصغير عند نهر (آرنو)، فوجدت الضابط المشرف وهو من أهل (چسينا Cesena)[٩٥] أطيب خلقاً وأكيس من كلّ العسكريين الذين إلتقيتهم بطباع دمثة رقيقة كطباع الفتاة. كما وجدته عندما تدعو الظروف مقداماً شديداً فوق ما تتصور. تابع هذا السيد الساحر الخلق ما أقوم به من عمل بإنتباه شديد حتى كان الخجل يعلوني أكثر من مرّة وكان حريصاً على تفهم وإستيعاب كلّ شيء، ولذلك قمت بشرح كلّ شيء له بطيبة خاطر. والنتيجة أننا صرنا نتسابق في تبادل آيات الودّ والتعاطف، ولذلك جاءت تحصينات بابه بشكل أفضل من تحصينات الباب الأول.

ما كدت أفرغ من من تحكيم البابين حتى قام بعض فصائل (پييرو ستروزي) بهجوم مباغت فساد الرعب منطقة پراتو. وهجر سكانها جميعاً بيوتهم واندفعوا الى المدينة زرافات وقد حمّلوا كل متاعهم على عجلات، فنشأ عن ذلك فوضى عظيمة. وبدت العجلات صفاً طويلاً لا تُرى نهايته آخذاً بعضها بحُجز بعض. فشددتُ على الحرس بإلتزام اليقظة والحزم خشية وقوع الفوضى هنا كما وقع عند أبواب (تورين Turin) ذلك لأنه لو إستدعت الضرورة الى إستخدام الباب الحديدي المشبك. فإن المحاولة في إستخدامه ستفشل بسبب تزاحم العجلات. لما سمع الكاپتن ذاك الحيوان الكبير أقوالي إستدار نحوي وأخذ يشتمني فكلتُ له الصاع صاعين وكدنا نلتحم لو لم يحل الناس بيننا.

بعد فراغي من التحصينات دفع لي مبلغ لم أتوقعه من الكراونات. وعدت لإكمال (پرسيوس) وأنا مرتاح جداً.

في ذلك الحين عثر المنقبون على بعض العاديات في ريف (أربزو Arezzo) وكان من بينها الـ(كميرا Chimera)[٩٦] ذلك الأسد البرونزي الذي يشاهد في الحجرات القريبة من القاعة الكبرى في القصر. والى جانب هذا عُثر على مقدار من التماثيل البرونزية الصغيرة يعلوها الطين والصدأ وكلها مشوّه، هذا ينقصه رأس وذاك يدان أو رجلان وهلمّ جراً... وكان الدوق يسلّي نفسه بتنظيفها مستعيناً بأزاميل الصياغة. وكنت ذات مرة أتحدث الى سموّه، فناولني مطرقة صغيرة وأشار فضربت بها الإزميل الذي كان يمسك به. وبهذا الشكل أزلنا عنها الصدأ والأتربة وأنفقنا في ذلك عدة أمسيات، ثم كلفني الدوق بإصلاح التماثيل وتركيب الأجزاء الناقصة فيها. وكان الدوق يجني من هذا غاية اللذة حتى

(٩٥) بلدة تقع شمال شرق فلورنسا على مسافة ٦٠ كيلومتراً.
(٩٦) كائن خرافي له رأس أسدٍ وجسم خروف وذنب يشبه جسم الأفعى وينتهي برأسها.

حملني على مواصلة العمل أثناء النهار أيضاً وكان يرسل بطلبي يستعجلني كلما تأخرت.

وحاولت إقناعه أكثر من مرّة بأني قد ألقى من سوء الحظ ما أكره للوقت الطويل الذي أستغرقه من هذا التمثال خوفاً من فروغ الصبر، وقد وقع ذلك فعلاً. أضف الى هذا مشكلة العمال الذين استخدمت عدداً منهم ووجب عليّ أن ألازمهم ملازمة الظل أثناء عملهم، وإلاّ آل الأمر الى مضاعفات وكلّها خطير. منها أنهم قد يتلفون عملي، ومنها أنهم سيتقاعسون ويتباطأون. وعلى أية حال فقد وافق الدوق بالأخير على حضوري مساء كلّ يوم إعتباراً من وقت الغروب فما فوق. لقد بلغ إنسجامنا حداً انه كان يتلقاني بمودّة وترحاب يفوق السابق بكثير.

في تلك الأيام كان العمل يجري في تشييد البناية الجديدة بالقرب من (ڤـــيا دي ليـوني Via dei Lieoni) وكان سموه يرغب في مقر أكثر إنعزالاً. لذا أعدّ لنفسه حجرة صغيرة في البناية الجديدة. وكان قد أوصاني بأن أسلك سبيلي اليه عبر خزانة الثياب. لذلك اعتدت التسلل من خلال شرفة القاعة الكبرى مجتازاً عدداً من الغرف الصغيرة ثم ادخل غرفته بسرّية تامة. إلاّ أن الدوقة بعد أيام قليلة حرمتني من هذا الطريق السهل بسدّها الممر بوجهي. وكانت النتيجة انتظاري وقتاً طويلاً كل مساء. فالدوقة قد تكون منصرفة الى أمورها الخاصة في الغرف الجانبية التي تقع في طريقي وكذلك لأن صحتها ليست على مايرام فقد كان قدومي يزعجها دائماً. ولهذا ولغيره اشتد سخطها عليّ فلم تعد تتحمل رؤيتي لكني واظبت على زياراتي رغم المتاعب والمضايقات.

كانت أوامر الدوق صريحة وهي تقتضي بفتح الأبواب لي حالما أطرقها وان يسمح لي بالمرور دون كلام وإستفسار عن وجهتي. وقد نجم عن ذلك اني كنت احياناً وفي اثناء مروري غير المتوقع بتلك الغرف الخصوصية، أجد الدوقة منصرفة الى شوونها الخاصة. في هذه الحالات يستبدّ بها الغيظ، فتنتهرني بكلّ حدة فيركبني الخوف. وكانت لا تفتأ تردد قائلة:

– متى ستفرغ من إصلاح هذه التماثيل الصغيرة؟ إن مجيئك ورواحك هذا هو السماجة بعينها.

فأجيبها بكلّ رقة ودماثة:

– سيدتي وحاميتي الوحيدة؛ إني لا أرغب إلاّ في خدمتك بإخلاص وفي إطاعة أوامرك. إلاّ أن العمل الذي عهد اليّ الدوق به قد يمتد أشهراً غير قليلة. لذلك أرجو منك ياصاحبة السموّ الجليلة أن تصدقيني القول اذا كان مجيئي يثقل عليك فما عليّ إلاّ السمع والطاعة ولن تري وجهي، وإن أرسل الدوق في طلبي فإني سأعتذر له بالمرض ولن أحضر مطلقاً.

فتردّ قائلة:

– اني لا أمنعك من المجيء. لم أقل هذا ولم أطلب منك عصيان أمر الدوق لكن يخيّل لي مع هذا ان العمل الذي تقوم به لن ينتهي.

ولست أدري، أبلغ الدوق شيءٌ مما جرى أم لسبب آخر فقد عاد مجدداً يرسل في طلبي فيصل رسوله قبيل حلول الليل ويقول لي مشدداً:

– إحرص على أن لا تتأخر فالدوق في إنتظارك.

واصلت العمل عدة أمسيات بوجه هذه المضايقات. وذات مرّة أثناء دخولي كالعادة التفت اليّ الدوق- ولعله كان مشغولاً ببعض الشؤون الخاصة مع الدوقة- وبغاية من الحِدّة قال لي فجأة وأنا مسمّر في مكاني وقد ملكني الخوف اهمّ بمغادرة المكان:

- ادخل يا بنڤنوتو وواصل عملك وسألحق بك بعد قليل.

وفيما أنا ماضٍ في سبيلي لقيني سيّدنا (دون گارسيا Don Garcia) فأمسك بمعطفي وبدأ يلاعبني بشكل ظريف للغاية وكان طفلاً آنذاك فتعجب الدوق وهتف قائلاً:

- انظر الى الصداقة والمحبّة الساحرتين اللتين يخصك بها أولادي.

اعتاد الأمير و(دون جيوڤاني) ودون (ارناندو) ودون (گارسيا)[٩٧] الوقوف قريباً منّي أثناء إنصرافي الى العمل في هذه الأشياء التافهة الصغيرة. فيمازحونني ويلكزونني ضاحكين لاعبين كلما أدار الدوق أبوهم ظهره فأتوسل بهم ليتلطفوا ويتركوني، فيجيبون بصوت واحدٍ:

- لانقدر!

فأقول:

- حسن جداً، مادمتم لاتقدرون، فأنتم لاتقدرون. إستمروا.

فينفجر الدوق والدوقة ضاحكين.

وفي مساء آخر يوم، بعد فراغي من عمل التماثيل البرونزية الأربعة الصغيرة التي كان مقرراً تركيزها في زوايا قاعدة تمثال پرسيوس. وهي تمثل كلاً من (جوپتر ومارس ومنيرڤا ودانايي والدة پرسيوس)[٩٨] مع إبنها الجالس عند قدميها حملتها معي الى الغرفة التي كانت محلّ عملي ووضعتها صفّاً واحداً فوق خطّ النظر بقليل لتبدو وهي أكثر جمالاً. ولما ابلغ الدوق بهذا خفّ مسرعاً ووصل قبل موعد وصوله المعتاد. إن من أخبر سموّه بها كان قد أفرط في الثناء عليها قائلاً هي أبدع من تماثيل الأقدمين غير ذلك من عبارات الإطراء. اقبل الدوق تصحبه الدوقة وهما يتحدثان عن عملي بإنبساط، فإستويت قائماً وتقدمت مستقبلاً. فحيّاني سموّه بحرارة وبسِمة الإمارة ورفع يده اليمنى التي كانت ممسكة بفرع شجرة أجاص كبيرة جداً وقال:

- دونك أيها العزيز (بنڤنوتو) اليك هذا الفرع من الإجّاص فإزرعه في حديقتك.

فأجبت باسماً:

- مولاي هل لي أن أفهم أن سموّك يقصد بأن أقوم بغرسه في حديقتي الخاصة؟ حديقة البيت الذي هو ملكي؟

فأكد الدوق قائلاً:

- أجل في حديقة بيتك. بيتك الخاص. أأدركت الآن ما قلتُ؟

فبادرت الى شكر سموه كما فعلت المثل للدوقة بخير ما حضرني من عبارات الشكر. ثم إنهم جلسا

(٩٧) هم أولاد الدوق والدوقة وكانوا صغاراً بين الخامسة والتاسعة.

(٩٨) داناي Danae في أساطير الإغريق هي بنت اكرسيوس خطفها جوپتر زعيم الآلهة فولدت له پرسيوس.

قبالة التماثيل. وبلغ من إعجاب الدوقة بها أنها أشارت قائلة:
- ليس بودّي أن تمتهن هذه التماثيل وتضيع قيمتها في قاعدة التمثال في الميدان. فقد تعطب وتبلى. لمَ لا تضعها في جناحي الخاص. فهناك ستحظى بالرعاية والتقدير الجديرين بمنزلتها الفريدة.

عارضت الفكر بطائفة من الحجج القوية. لكني أدركت مبلغ تصميمها على منعي من وضعها في القاعدة حيث هي الآن. فإنتظرت اليوم التالي ويممت شطر القصر قبل المغرب بساعتين وكان الدوق والدوقة قد خرجا يتنزهان على ظهور الخيل. ولما كان قد كمل نصب القاعدة فقد أمرت بنقل التماثيل الأربعة الى الميدان وقمت بلحامها في أماكنها المخصصة لها.

النتيجة! لن أطيل عليك. لما سمعت الدوقة بما فعلت إجتاحها غضب شديد ونقمت عليّ أشدّ نقمة ولو لم يخفّ الدوق الى نجدتي بنبله وشهامته- لسقطت سقطةً عنيفة لا قائمة لي بعدها. مهما يكن من أمرٍ، فإن نقمتها السابقة بسب حادثة اللآلي فضلاً عن هذه الأخرى جعلتها تدبّر الأمور بحيث عاف الدوق مصدر تسليته البسيطة وكان عليّ أن أقطع زياراتي، بل وجب عليّ أن أتحمل المضايقات السالفة كلّما أردت ولوج القصر.

عدتُ الى الـ(لوجيا Loggia)حيث سبق لي ان نقلت (پرسيوس) وحاولت الفراغ منه في تلك الظروف الصعبة التي أشرت اليها. وأنا خالي الوفاض لا أملك دانقاً موجَع القلب محزوناً. لو ابتلي رجل قُدَّ من حديد بنصف ما أُبتليت به من عثار حظ ونكدٍ لسحق تحته سحقاً. لكني واصلت السير غير مبالٍ.

في صبيحة ذات يوم، بعد أن فرغت من سماع (القُدّاس) مرّ بي صدفةً (برناردو) السمسار الصائغ الغبيّ- ومتعهد مواد دار الضرب بفضل كرم الدوق. كان ذلك في (سان پييرو سكگراجيو San Piero Scgeraggio) وماكاد يخرج من باب البكنيسة حتى افلت من دُبر هذا الخنزير القذر أربع ضرطات مجلجلة قد تُسمع في (سان مينياتو San Miniato) فصرخت به قائلاً:
- تباً لك أيها الخنزير القَبّاع يا حيوان يا بهيمة، أهذا هو دليلك على عبقريتك؟

ثم أسرعت أفتش عن عصا فأطلق ساقيه للريح نحو دار الضرب. ووقفت خلف باب بيتي مباشرة. وندبت أحد صبيان دكاني ليقف خارجه ويبلغني عند خروج ذلكم الخنزير من دار الضرب وبعد إنتظار سئمت وهدأت نفسي. ثم قدّرت أن كلّ شيء يمكن أن يقع أثناء القتال وقد تتطور المسألة الى ما ليس بالحسبان. فقررت أن أثأر لنفسي بشكل آخر.

وقع هذا بعد يوم او بعض يوم من عيد القديس يوحنا. لذلك نظمت مقطوعة شعرية والصقتها في ركن من أركان الكنيسة الخارجية حيث الموضع الذي يؤمه الناس لقضاء الحاجة. قلت:

هوذا (برناردو) الخنزير البغل
السمسار اللص، الجاسوس
تتطاير منه شرور پاندورا[٩٩] نحو

(٩٩) في الأساطير اليونانية الپاندورا Pandora هي إمرأة بعث بها جوپتر الى البشر لعقابهم بعد أن قام (بروميثيوس)=

المغفل (باچيو) ذلك الأحمق الآخر.

وذاعت الحكاية والشعر في القصر وضحك الدوق والدوقة لها كثيراً وقبل أن يسمعها (المهجو) نفسه كانت العشرات تقف فتقرأ الشعر وتضحك شاخصة بأبصارها الى دار الضرب أو تبحلق في وجه (برناردو). وفطن ابنه (باچيو) اليها فإنتزعها ومزّقها وهو يكاد ينشق غيظاً. أما (برناردو) فقد راح يهزّ قبضتنه مطلقاً الوعيد والتهديد من أنفه الضخم الخوّار.

لما أبلغ الدوق بأن (پرسيوس) جاهز للعرض جاء لرؤيته. وأظهر رضاه التام من غير مماراة. ثم وجه كلامه الى طائفة من النبلاء كانوا في رفقته، فقال:

- الواقع إني أرى التمثال آية في الجمال. ولكن يجب أن يحوز رضا عامة الناس ولذلك إسمح لي أيها العزيز بنڤنوتو أن أطلب منك التكرّم عليّ برفع الستار عنه في ميداني لمدة نصف يوم قبل أن تضع اللمسات الأخيرة عليه. وإذذاك سيكون في وسعنا أن نسمع آراء الناس فيه. هناك على كلٍ فرق بين رؤيته داخل قفص كما هو الآن وبين رؤيته وهو قائم لا حاجب بينه وبين العيون.

أجبته بكلّ تصاغر:

- عليّ أن أؤكد لك يامولاي بأنه سيبدو أجمل بأضعافٍ. كيف نسي سموّك مشاهدته قبلاً وهو في حديقتي معروض في فناء واسع وكم بدا رائعاً لك الى الحدّ الذي جعل (باندنللو) يسترق النظر اليه من خلال حديقة (الأنّوسنتي). ولقد إضطر رغم أنفه الى الثناء عليه مع ما جبل عليه من خبث طوية وطبع شرير وهو الذي لم يقل كلمة خير في أحدٍ طوال عمره. واني لأقول هذا لعلمي بأن سموّك يضع فيه ثقة كبيرة.

مطّ الدوق شفتيه علامة الضيق لكنه قال بلطف:

- قم بهذا يا بنڤنوتو. إرضاءً لي فحسب.

ثم دار على عقبيه منصرفاً. وبدأت أستعد لإزاحة الستار عنه. وكان ينقصه شيء من التهذيب وطلاء أجزاء فيه وغير ذلك. فلم يسعني إلاّ التذمر والشكوى. وأخذت ألعن اليوم النحس الذي خطر ببالي فيه أن أشدّ الرحال الى فلورنسا. بمرور الزمن صرت أدرك الخسارة العظمى التي نكبت بها نفسي بتركي فرنسا. واسقط في يدي فلم أعد أتبين سبيلاً للأمل من خدمة أميري هذا في فلورنسا. لقد آل كلّ ما فعلته في حياتي من بدايتها حتى الآن- الى الخسار والضرر...

بمثل هذه الأفكار السوداء أزحت الستار عن تمثالي في اليوم التالي. وكما شاءت عناية الله، ما أن عرض للملأ حتى أقبل الناس عليه بالثناء المستطاب والإعجاب غير المتحفظ مما منحني بعض العزاء. وإستمر لصق القصائد والأغاني الشعرية على أعمدة الأبواب حيث أقمت لنفسي ستائر واقية أثناء إنهماكي في وضع اللمسات الأخيرة. وأذكر عن يقين بأن أكثر من عشرين قصيدة تم لصقها في يوم

=بسرقة النار. وزوّدها جوپتر بعلبة ما أن فتحتها بدافع الفضول حتى إنطلق منها جميع الشرور والرذائل فعمت البشر. والنكتة التي قصدها چلليني في شعره والتعريض بما عمله برناردو واضحان هنا. (ربما فكّر چلليني أن خصمه هذا ما أطلق الريح إلاّ بمناسبة لقائه وإنه إدّخرها له!).

العرض الذي لم يدم غير ساعات قلائل. وكلها مدح وتقريظ رفعا تمثالي الى السماكين. ولم ينقطع سيل هذه القصائد حتى بعد ستره. ومن بينها قصائد باللغتين اليونانية واللاتينية. إذ إتفق أن العرض وقع أيام عطلة جامعة (پيزا) فتنافس مشاهير الأساتذة والعلماء فيما نظموه وكتبوه. على أن ما ضاعف في سروري ومنحني الأمل في أن تتوثق علاقاتي بالدوق، هو أن زملائي الفنانين وأقصد النحّاتين والرسامين راحوا هم أيضاً يتبارون في الثناء على عملي. وأذكر مشفوعاً بالتقدير رأي الرسام الموهوب جاكوپو داپنتورمو Jacobo da Pontormo[١٠٠]، وبصورة خاصة رأي تلميذه الرسام (برونزينو Bronzino)[١٠١] الذي لم يكتف بلصق عدد من القصائد على الأعمدة، بل أرسل الى منزلي بعضها بيد مساعده (ساندرينو Sandrino)، كتبها بأسلوبه البليغ الذي لايُدانى، وبقلم محكم فأدخلت العزاء والراحة الى نفسي.

بعد هذا أحطتُ التمثال بالستائر ورحت أضع اللمسات الأخيرة عليه بكلّ نشاط.

إطلع الدوق على الثناء الذي أغرقني به أساتذة الفن في فلورنسا بعد معاينتهم التمثال. ومع هذا فقد علّق بقوله:

- اني لعظيم الإغتباط لما نال (بنڤنوتو) من بعض إرتياح، فسيدفعه هذا الى إنجاز العمل بالتمثال بسرعة وبالشكل الصحيح. لكن عليه أن لايحسب بأنه سيلقى عين الترحاب والثناء بعد أن يتم عرضه للملأ بصورة نهائية وتتملاّه الأعين من شتىّ جوانبه. فمن المحتمل جداً أن يتضح كل عيوبه والكثير مما ليس فيه. ولذلك يجب عليه أن يتجمّل بالصبر ويتهيأ لإحتمال السيء.

تلك العبارات صبّها (باندنللو) في أذن الدوق. مقتبساً على سبيل المثال آثار (اندريا دل ڤيرّوكيو Andrea del Verrocchio)[١٠٢] الذي صنع ذلك التمثال الرائع للسيد المسيح ولتوما الرسول المعروض في واجهة الـ(اورزاميكيلي Orsammichele). وكذلك معرّضاً بعددٍ من الآثار الأخرى، حتى لم يسلم منه تمثال داود الرائع لميكالنجلو الخالد، الذي قال عنه أنه لايبدو مهيباً إلاّ عندما يُنظر من أمام. ثم نوّه بالعدد الكثير من المقطوعات الهجائية الشعرية التي نظمت بحق تمثاله (هرقل وكاكوس) وراح يشتم الفلورنسيين.

مع كل هذا والدوق الذي كان يوليه الثقة الكبيرة، لم يقل ما قال عنّي إلاّ بوحي منه. وسموه كان متأكداً بأ ماقاله (باندنللو) سينتقل ويشيع لأن هذا الوحش الحسود كان مغرماً بالنميمة وقول السوء. وفي إحدى المناسبات أراد ذلك الوغد السمسار (برناردو) تأييد الأقوال التي تفوّه بها (باندنللو) فقال بمحضر من الدوق:

(١٠٠) جاكوپو كاروچي (١٤٩٤-١٥٥٦) المولود في پونتورمو من أعمال إيطاليا. أثّرت رسومه كثيراً في إتجاهات ميكالنجلو ودوَرر.

(١٠١) آنيو لو توري برونزيو (١٥٠٣-١٥٧٢) رسام فلرونسي إختصّ بآل مديتشي من أشهر لوحاته (ماري مديتشي) ورسوم دوقات وأدواق فلورنسا التي ترى في معارض ومتاحف فلورنسا الآن.

(١٠٢) صائغ ورسام ونحّات فلورنسي (١٤٣٥-١٤٨٨).اشتهر بالتمثال العظيم الذي يشاهد الآن في كامپو (ساحة) سان زانيپولو في البندقية، للقائد (باتولومو كوليوني). وهو استاذ ليوناردو دافنشي.

- ليس بخافٍ عنك يامولاي إن إقامة تماثيل ضخمة مسألةٌ تختلف عن صنع تماثيل صغيرة. ولست أقصد من هذا انه (يقصدني) لاينجز الجيّد الرائع في صغير التماثيل، لكنك سترى انه لم يحسن العمل في الكبير منها.

وجرياً على عادة هذا النمّام مروج الحكايات، دس في هذا التعريض اللاذع إفتراءات عدّة، وأقام جبالاً من الأكاذيب على اني بحول الله المجيد وعونه وضعت اللمسات الأخيرة على التمثال. وفي صباح يوم خميس أزحت الستار عنه. وماكاد يتنصّف النهار حتى إجتمع حوله خلق كثير يتعذر إحصاؤهم. وشرعوا في الثناء والإطراء دون تحفظ وتنافسوا في تقريظه. وكان الدوق قد أشرف على الميدان من إحدي نوافذ القصر السفلى فوق المدخل وهو شبه متخفٍ فسمع كلّ ماقيل عنه. وبعد إصغائه الى أقوال الناس بضع ساعات نهض متحمساً وإلتفت الى النبيل السيد (سفورزا) مرافقه وقال:

- سفورزا. أسرع الى (بنڤنوتو) وقل له أنه أرضاني وأسعدني فوقما توقعت وقل له أيضاً إنني سأكافئه بشكل يدهشه، وأن عليه أن لايقلق بخصوص أي شيء.

حمل لي السيد (سفورزا) هذه الرسالة الرائعة فإرتفعت بها معنوياتي الى السماك لابسبب ماتضمنت من أنباء طيبة فحسب بل بسبب صيرورتي حديث الناس جميعاً وإستمرارهم في الإشارة الى تفاصيل في التمثال تارة هنا وتارةً هناك. قائلين إنها إبداعات طريفة لم يسبقني إليها أحدٌ.

من بين المعجبين، نبيلان صقليان. كان نائب الملك في صقلية[١٠٣] قد أوفدهما في مهمةٍ الي الدوق. أقبل هذان النبيلان الرقيقان عليّ وأنا في الميدان (كنت ماراً فدلّهما أحدهم عليّ فأسرعا يعدوان نحوي). شرعا حالاً وكلّ منهما ممسك بقبعته- يلقيان خطبة رسمية حافلة بالتقريظ والتعظيم فيها إفراط بحق الپاپا نفسه. رحت أتوسل بهما ليتكرّما بمبارحة الميدان لأن المارة بدأوا يتسكعون حولنا لفرط ماغمراني بالمديح وأنا مُظهر تواضعي قدر الإمكان. وأخذ الناس الواقفون يحدقون فيّ أكثر من تحديقهم بتمثال (پرسيوس)، فأدركني الخجل لكنهما اندفعا بحرارة وحماسة الى الحدّ الذي إقترحا عليّ السفر الى (صقلية). ووعداني بشروط للعمل مناسبة جداً. حدثاني كيف ان الراهب (جيوڤانانيولو دي سرڤي Giovanagnolio de Servi) قد صنع فسقية كاملة مزدانة بعدد من التماثيل الصغيرة فجعلوا منه رجلاً ثرياً، وإن لم تكن تماثيله بالتي يمكن مقايستها بـ(پرسيوس). لم أدعهما ينهيان ما أرادا قوله فقاطعتهما بقولي:

- إن العجب بل وأكثر منه ليتملكني لمحاولتكما إقناعي بترك الخدمة لشخص لم أجد محباً للفن مثله كأميري الدوق، لاسيما وأنا الآن في بلدتي التي هي مدرسة كلّ العباقرة. ولو كنت أطمع بالربح الكثير لبقيت في فرنسا أخدم (فرانسوا) ذلك الملك الجليل الذي أجرى عليّ ألف كراون معاشاً. فضلاً عن دفعه لي أجراً إضافياً عن كلّ عمل أكلّف به. فكنت أتسلم سنوياً طبقاً لهذا، مايزيد عن أربعة آلاف كراون ذهبي. ومع ذلك فقد رحلت تاركاً في پاريس ثمرة عمل السنوات

(١٠٣) كانت صقلية آنذاك من أملاك ملك إسپانيا.

الأربع المنصرمة.

بهذه الردود وغيرها وضعت لمقترحاتهما حداً وشكرتهما على مديحهما الجميل الذي تفضّلا به. وهو خير جزاء ينشده الذي أبدع عملاً فنياً رائعاً. وقلت إنهما ضاعفا من رغبتي في السموّ بفنيّ، وقويا عزمي على أن أقوم خلال السنوات القليلة التالية بعرض أثر آخر قد يدخل السرور في قلوب الفنانين الفلورنسيين النبغاء أكثر مما أشاعه (پرسيوس) فيهم. وهمَّ النبيلان الصقليان بوصل حبل الثناء والمديح حيث إنقطع، إلاّ أني رفعت قبعتي لهما وإنحنيت بإحترام ثم أقرأتهما السلام.

مرّ يومان، والثناء على (پرسيوس) يعلو ويتضاعف. وبعدها قررت مقابلة سيّدنا الدوق فبادرني حالما لقيته قائلاً بنفس طيبة جداً:

– لقد سررتني وأرضيتني أي عزيزي (بنڤنوتو). وأنا أعد بإرضائك على نحو سيأخذك منه العجب. بل وأكثر من هذا؛ دعني أوكد لك بأني لا أنوي المماطلة والإنتظار الى يوم غدٍ.

إستقبلت هذه الوعود الضخمة بشخوصي الى الله تعالى روحاً وجسماً وشكره من أعماق قلبي. وتقدمت في الوقت نفسه من الدوق بعينين تدمعان فرحاً وقبلت طرف عباءته، وقلت:

– مولاي المعظم. أيها الراعي الكبير للفن وللرجال الذين يمارسونه. اني أتوسل بسموّك العالي القدر لكي تمنحني إجازة مدة أسبوع، أولاً لأتمكن من تقديم شكري لله. فأنا وحدي أعرف كم من الجهد والتعب قد كلّفني التمثال. مثلما أعلم بأن ثقتي القوية به عزّ وجلّ جعلته يخفّ الى نجدتي. فلأجل ذلك وبمقابل كل المعجزات الأخرى التي حققها أرغب في أن أقوم بحجّة شكر أمدها أسبوع أقضيه في الصلاة والدعاء لله الحيّ ذلك الذي يخفّ لمعونة من يستجيره بإيمان خالص.

سألني أين ستكون وجهتي فأجبت:

– سأقصد (ڤالمبروزا Vallombrosa) ثم (كامالدولي Camaldoli) ومنها الى (إريمو Eremo) حتى حمامات سانتا ماريا Bagai de Santa Maria وربما (سستيلي Sestile) لأني أُعلمت بوجود بعض التحف الأثرية الجميلة فيها. وبعدها سأقفل عائداً بطريق (سان فرانشسكو دلاڤرنيا San Fracesco della Vernia) وأنا مرتاح النفس، لأقف في خدمتك مواصلاً شكري لله.

فأجاب الدوق فوراً وبصوت مرح:

– اذهب ثم عد اليّ. فأنا في الحقيقة راض عنك كلّ الرضى. وأترك لي سطرين لتذكرني بوعدي واعتمد عليّ.

فقمت في الحال بكتابة سطور قليلة شكرت فيها سموّه، ودفعت بالرقعة الى السيد (سفورزا) الذي ناولها بدوره للدوق. فأخذها منه ثم أعادها اليه قائلاً:

– إحرص على تريني إياها كلّ يوم. اذ لو عاد بنڤنوتو ووجد اني لم أفِ بعهدي له فلا اراه إلاّ قاتلي!

وبضحكة منه أضاف قائلاً: بأن لاشيء يحول دون تذكره ولن يسمح لنفسه بالنسيان. نُقلت لي كلمات الدوق هذه بالحرف الواحد مساء اليوم نفسه. بلسان (سفورزا) الذي أعادها على مسامعي وهو يضحك، وقال انه مندهش للحظوة العظيمة التي تفضّل بها الدوق عليّ. ثم أضاف بلطف ساحر:

- اذهب يابنڤنوتو وعد، واني لأغبطك.

بارحت فلورنسا متوكلاً على الله، مواظباً على تلاوة الصلوات والمزامير تمجيداً له وتعظيماً وكانت سفرة ممتعة، فالصيف في أروع حُلّة والريف أنعش نفسي وشرح خاطري بلا حدود وأنا أجوس خلاله وأملأ منه عينيّ وهو والحق يقال بلا نظير. وكان في صحبتي أحد مساعديّ الشبّان ضممته اليّ ليكون دليلاً وإسمه (چيزاري Cesare) وهو من أهل الحمامات[١٠٤] رحّب بي والده وسائر أسرته ترحيباً حاراً. وكان من بين أقربائه شيخ مُسّن أربى على السبعين وهو عمّ لـ(چيزاري) ويتعاطى الجراحة مهنةً، إلاّ أنه كان يزاول الكيمياء أحياناً. وقد آنستني صحبته كثيراً. ذكر لي هذا الرجل الطيب وجود مناجم لمعدني الفضة والذهب في (حمامات سانتا ماريا) كما صحبني الى مواقع ذات مناظر طبيعية خلابة. فإستمتعت بإقامتي إستمتاعاً تاماً والحق يقال. ولقد قربته طبيعته السمحاء منيّ كثيراً، حتى إنه أسرّني ذات يوم بهذا القول:

- عليّ أن لا أكتمك شيئاً يتردد في خاطري، ربما كان ذا نفع عظيم لصديقك الدوق. فبالقرب من (كامالدولي) شِعْبٌ جبلي مكشوف غير محصّن يسهل جداً على (پييرو ستروزي) إجتيازه دون عائق. ليس هذا فقط بل سيتمكن بعد ذلك من إلقاء الحصار على (پوپي Poppi) دون أن يلقى في طريقه أية مقاومة.

ولم يكتف بذلك بل تناول ورقة من جيبه كان قد رسم عليها بوضوح خريطة لكلّ الناحية وثبّت فيها المعلومات التي أدلى بها بشكل يمكن الإعتماد عليه. فأخذتها وغادرت (الحمامات) فوراً مستقبلاً فلورنسا بأسرع ما أمكنني سالكاً طريق (پراتو مانيو Prato Magno) و(سان فرانشسكو دلاّ ڤرنيا). ولم أتأخر في منزلي أكثر مما إقتضاني نزع حذاء الركوب من وقت وخففت الى القصر مسرعاً. ما إن بلغت (باديا Badia) إلاّ وأنا والدوق وجهاً لوجه. إذ كان مقبلاً من قصر (الپودستا Podesta). ولما وقعت أنظاره عليّ أقبل يرحب بي بحرارة تشوبها دهشة. ثم قال:

- ما الذي دعاك الى العودة بهذة السرعة؟ لم أكن أتوقع مجيئك قبل أسبوع آخر.

أجبته:

- أجل عدت. وسبب عودتي هو خدمة سموّك. فأنا نفسي كنت مشتاقاً الى قضاء بضعة أيام أخرى مستجمّاً في الريف الساحر.

فسألني الدوق:

- ما أخبارك الطيبة؟

قلت:

- هناك يامولاي أمرٌ بالغ الخطورة أريد أن أطلعك عليه وأحدثك به.

ثم سرت في معيته الى القصر. وبوصولنا أخذني الى غرفة وإختلى بي فأطلعته على كلّ شيء.

(١٠٤) يقصد حمامات سانتا ماريا التي ورد ذكرها.

وسلّمته الخارطة الصغيرة المرسومة بالقلم. فبدا عليه السرور الشديد ولما أشرت عليه بوجوب معالجة الموقف دون إبطاء، أطرق مفكراً فترة من الزمن ثم أجابني:

- أرى أن أخبرك بأننا عقدنا معاهدة مع دوق (اوربينو) وبمقتضاها ستكون المحافظة على هذا الشِّعب من واجباته. وأرجو أن يبقي ما قلته سراً عندك.

وبعد إظهاره الكثير من المودة والرعاية عدت الى منزلي.

وفي اليوم التالي يممت شطر القصر. وبعد حديث مع الدوق قال لي ببشاشة:

- غداً سأنظر في شؤونك بلا إرجاء، فلا تقلق.

إنتظرت اليوم التالي إنتظار المشوق المستهام وأنا أشعر بتمام الثقة. وعندما بزغت شمسه توجهت الى القصر.

إن المرء عادة ما يسمع خبر السوء بأسرع مما يصله الخبر المفرح. فقد طلبني السيد (جاكوبو گويدي) أمين سرّ سموه وقال لي بصلافته المعهودة وصوته يتسلل خارجاً من فمه الأعوج بصعوبة:

- الدوق يقول إن عليك أن تعرّفني بالثمن الذي تطلبه لـ(پرسيوس).

وكان يقف جامداً كالقضيب أثناء ذلك.

سُمّرت في مكاني وعقلت الدهشة لساني. ثم إندفعت فجأة لأجيبه بأني ما وضعت قطّ ثمناً للعمل الذي أقوم به. وإن هذا يناقض ماوعدني به سموّه قبل يومين. فردّ حالاً بنبرة أكثر إرتفاعاً إنه يبلغني بأوامر صريحة صادرة من الدوق نفسه أن أسمّي المبلغ الذي أريده وبخلاف هذا فإني سأفقد مكانتي عند الدوق وسأكون موضع سخطه.

إن معاملة سموّ الدوق الحافلة بالمودة، فضلاً عن العطف الذي أظهره لي، ضللني كثيراً وجعلني أتوقع أشياء منه. زد على هذا فقد كان الإنطباع المتخلف عندي هو اني نلت كامل الحظوة عنده لاسيما وان كلّ ما رجوته هو ان يجعلني موضع ثقته واعتماده ليس إلاّ. لذا فإن هذا الطرز من التعامل معي ملأني غضباً لأنه لم يكن متوقعاً. وبسبب الأسلوب الذي ابلغت برسالته من قبل هذا العلج الحاقد. قلت: لو ان الدوق اعطاني عشرة آلاف لما كان كافياً. ولو قدرت ان جزائي سيكون بهذا الشكل لما بقيت لحظة واحدة في خدمته. فما كان من الحيوان إلاّ وشرع يصبّ عليّ الشتائم صبّاً فقابلته بمثلها.

في اليوم التالي توجهت الى القصر للسلام على الدوق فإستدعاني سموّه بإشارة منه ولما دنوت قال لي غاضباً:

- بلدان وقصور باذخة تُبنى بعشرات الألوف من الدوقيات.

فأجبته في الحال ان سموّه يستطيع ان يجنّد اي عدد يشاء من الرجال الذين في وسعهم بناء المدن والقصور، لكني أشكّ في ان يكون قادراً على ايجاد شخص واحد في العالم بأسره يستطيع ان يصنع تماثيل مثل (پرسيوس).

قلت هذا وأسرعت بمغادرة القصر دون إضافة كلمة أخرى.

بعد أيام قلائل إستدعتني الدوقة ونصحتني بأن أدعها تتولي أمر تسوية خلافي مع الدوق فهي تعتقد بأنها ستفلح وبالصورة التي ترضيني. قلت رداً على هذه الكلمات الرقيقة، إن المكافأة العظمى التي انشدها لقاء جهودي إنما هي رضى الدوق عنيّ وهو ماوعدني به سموّه المعظّم. وزدت قائلاً: لاحاجة تدعوني الى أن أضع بين يدي سموّها ماكنت قد تنازلت عنه لهما منذ اليوم الأول لتجنيدي نفسي في خدمتهما. ولو أن سموه لم يعطني غير درهم توسكاني واحد لايساوي أكثر من خمسة صولديات، فسأعدُّ نفسي سعيداً وأرضى به شريطة أن أبقى موضع ثقته ومقرّباً منه. وهذا ما حمل الدوقة على القول وهي تبتسم:

- بنڤنوتو، نصيحتي لك هي أن تفعل ما أوصيك به.

ثم أدارت ظهرها لي وإنصرفت.

كنت قد توهمت بأن خير أسلوب أنتهجه هو أن آخذ بسبيل التذلل والإنصياع في كلامي، فظهر لي أنه أسوأ ما أقدمت عليه. لأن طبعها الدمث كان يدفعها الى عمل الخير، وإن كانت حانقة عليّ بعض الشيء.

في ذلك الحين كانت أواصر الودّ تربط بيني وبين (جيرولیمو ديلي اليزّي Girolimo Degle Allizzi) ضابط تموين عسكر الدوق وقد قال لي هذا الصديق يوماً:

- يخطر ببالي يا بنڤنوتو الإشارة بأن الحكمة تقتضي منك تسوية هذا النزاع الناشب بينك وبين الدوق. وأوكد لك اني لقادر على تسوية الموضوع إن وضعت ثقتك فيّ. أقول هذا وأنا مدرك تماماً ما أقول. فالدوق يتضاعف إستياؤه، وستكون العاقبة عليك وخيمة. ولاأقف في الحديث هنا اذ لايسعني المصارحة بكل شيء.

واتفق بعد محادثتي للدوقة- أن اتصل بي أحدهم (وغدٌ ولاشك) وقال انه سمع الدوق يقول لسبب ما أو لغيره:

- ما أسهل عليّ أن أقذف بـ(پيرسيوس) الى حيث... وبهذا أنفض يدي من المسألة وأتخلص من تبعاتها نهائياً.

فبسبب القلق الذي شاع في نفسي إثر هذا القول بادرت الى أن أعهد بالأمر لـ(جيرولیمو ديلي اليزي) قائلاً اني اوافق على أية تسوية شريطة ان استعيد ثقة الدوق.

هذا الرجل السليم القلب الملمّ حق الإلمام بفنون الحرب والجنود، الماهر الحاذق بصورة خاصة في أمور الميليشيا وكلهم من أهل الريف، كان أجهل الناس بفن النحت، بل لايفهم منه شيئاً. ولذلك قال للدوق عند توسطه في الأمر:

- مولاي، إن بنڤنوتو قد فوّضني تفويضاً مطلقاً. وطلب مني الدفاع عن قضيته عند سموّك.

فأجاب الدوق:

- وانا أيضاً افوّضك في ايجاد حلّ ولن اعترض على الحكم الذي تصدره.

فقام (جيروليمو) بتدبيج رسالة ساذجة لصالحي. ذكر فيها ان على الدوق ان يدفع لي ثلاثة آلاف وخمسمائة كراون بالنقد الذهبي وأن هذا المبلغ ليس بالقيمة الحقيقية لعملي الفريد. وإنما هو بمثابة أمانة على نفقاتي وستراً لخلّتي ووسيلة للتصريح برضائي. اذ من الواجب قبل كلّ شيء ان اكون راضياً. ثم أضاف الى هذا تعاليل أخرى بقصد الوصول الى التسوية المالية.(١٠٥)

اسرع الدوق يعلن موافقته بلهفة توازي إستيائي. ولما سمعت الدوقة بالنتيجة عقّبت بقولها:

- يا للرجل المسكين! لو إعتمد عليّ لنفعته. اذ كنت سأحصل له على خمسة آلاف كراون.

ورددت هذه الأقوال بعينها لي يوماً في القصر بمحضر من (آلامانو سالڤياتي Alommano Salviati) وراحت تشمتُ بيَّ قائلة إني أستأهل ما يصيبني من سوء حظ.

ورتّب الدوق أن يدفع لي شهرياً مائة كراون ذهبي الى أن يتم تسديد المبلغ، فتسلمت الأقساط بإنتظام بضعة أشهر وفق ذلك، ثم بدأ الموكّل بالدفع السر أنطونيو دي نوبيلي Antonio de Nobili يسلمني خمسين فحسب ثم خمسة وعشرين، وأحياناً لاشيء.

شقّت عليّ هذه المماطلة فكلمت (أنطونيو) بكلّ أدب راجياً مصارحتي بالأسباب التي تدفعه الي التوقف عن الدفع .فأجاب بمثل أدبي قائلاً إن السبب في التأخر عن الدفع بإنتظام هو قلّة المال في القصر ووعد بالدفع حالما يتيسر المال، ثم زاد قائلاً "لأكون وغداً زنيماً إن لم أدفع لك"- وبهذا القول المتناقض فضح ما كان يريد كتمه كما سيحكم القاريء بلاشك.

عجبت لهذا القول حقاً. إلاّ أني منيت نفسي بأنه لن يتأخر عن الدفع عندما يكون قادراً. فكنت واهماً. وأخيراً بعد أن إتضح لي كم تُساء معاملتي فقدت السيطرة على أعصابي وفي لحظةٍ من حنق متفجر، انذرته وبكلّ حدّة بأنه سينزل من مكانته عندي إن إمتنع عن دفع ما إستحقّ. على إن الرجل ما لبث ان غادر هذه الدنيا وظلّت أجوري معلّقة. وها أنا في نهاية العام ١٥٦٦ ومازال مبلغ خمسمائة كراون ذهبي موقوفاً. كان ثمّ أيضاً المتأخرات من رواتبي التي بدت بعد مرور ثلاث سنين وكأنها في عداد الديون الميتة. إلا أن الدوق اصيب بعلّة خطيرة. اذ احتبس بوله ثماني وأربعين ساعة. ولعلمه بأن الأطباء ماعادوا يجدون له في طبّهم حيلة، توجه الى الله ضارعاً وكما يغلب على ظنّي. أمر أن تُسدد كلّ ديونه. فتم دفع المتأخر من تلك الرواتب ولكن الأقساط الباقية من ثمن (پرسيوس) بقيت غير مدفوعة.

كنت قد قررت ألاّ أتطرق الى الحديث عن (پرسيوس) المنكود ولا أذكره بحرفٍ. لكنني مرغم على ذلك لسبب لا قبل لي بدفعه ولذلك سأعود القهقري قليلاً وأواصل الحديث من حيث إنقطع. خيّل لي إني كنت مصيباً بقولي للدوقة بأني ماعدت قادراً على التوصل الى إتفاق حول شيء خارج عن نطاق إرادتي بعد أن قررت للدوق بأني سأرضى بكلّ مارغب في أن يدفعه لي. وقد كان هدفي من هذا

(١٠٥) نظراً لقوة النقد الشرائية في ذلك الزمن يبدو ان المبلغ المتفق عليه ليس قليلاً وإن چلليني لم يغمط حقه كما يدعي.

القول هو إرضاء الدوق. ومحاولتي بهذا التصرف الكيّس إزالة إستيائه الشديد بشكل ما، ذلك الإستياء الذي عبّر عنه غضبه مني قبل أيام قلائل من إتفاقه مع (أليبزي).

ويعود سبب غضبه الى تظلّمي لدى سموّه من المسلك الخياني الخشن الذي عاملني به كلّ من السيد (الفونسو كوستيللّو Alfonso Quistillo) والسيد (جاكوبو پولڤيرينو Jacobo Polverino) المستشار. ولاسيما السيد (جيوڤانباتستا براندينى Giovanbatista Brandoni) الڤولتيرّي. فقد عرضت عليه قضيتي معهم بشيء من الحدّة والتوتر وكان هو يحاول ضبط نفسه، حتى إذا إنتهيت قال:

- هذا عين ماحصل حول تمثالك (پرسيوس) عندما طلبت عشرة آلاف كراون ثمناً له. إنك تغلّب منفعتك الذاتية على أفضل مافيك. سأقوم بتقدير ثمنه وسأدفع لك المبلغ الذي يُحكم لك به.

فكانت إجابتي على هذا مشوبة بشيء من الحدّة والغطرسة (ليس من الحكمة في شيء أن تستخدم هذه اللهجة في مخاطبة السادة العظام) إذ هتفت قائلاً:

- لعمري كيف يمكن أن يُقيَّم عملي، وليس في فلورنسا من هو صالح لهذا؟

فتضاعف غضب الدوق وأطلق فمه بعض العبارات المرّة. أذكر منها هذه:

- في فلورنسا اليوم رجل قادر على صنع تمثال مثله بالتأكيد. وهو لهذا يصلح للحكم عليه حكماً عادلاً.

وكان يقصد (باندنللو) فارس القديس يعقوب.[١٠٦]

فأجبت:

- مولاي، إن سموّك المعظم وهو بين أعظم فناني العالم، مكنّني من إنجاز عمل هامٍ جداً دقيق للغاية. هذا الأثر مُدح وقُرّظ بشكل لم يسبقه فيه عمل آخر لمدرسة الفلورنسيين النبغاء. ومما يزيدني فخراً أن واحداً من أولئك الرجال العظام المطلعين والممارسين وأقصد به الرسام (برونزينو) خرج عن طوره في إعجابه، فكتب أربع قصائد بأسلوبه الرفيع البليغ تقريظاً له. وحذا حذوه كلّ أهالي المدينة بحماسة وضجيج غير مسبوقين. أوكد لكم لو أن هذا الفنان النابغة ركّز جهوده في النحت مثلما ركّزها في الرسم لكان في وسعه أن يصنع مثيلاً له، كما أوكد لسموّك بأن أستاذي (ميكالنجلو بوناروتي) كان بإمكانه أن ينجز عملاً مثله وهو في شرخ الشباب باذلاً عين الجهد الذي بذلته فيه. إلاّ أنه سيقصر دونه الآن بعد أن طعن في السنّ. ولهذا فإني لا أجد من الأحياء الذين أعرفهم اليوم من يقوى على صنع نظير له أو يباريه. وأنا من جهتي لا أجدني طامعاً في مكافأة لعملي هذا أعظم من الجزاء الذي نلته. لاسيما وإن سموّك المعظم لم يكتف بالإعراب عن سرورك به بل أثنيت عليه ثناء لم يطاولك فيه أحدٌ. فأي مكافأة أعظم وأبعث على الفخر يطمع بها المرء بعد هذه؟ أقول مصراً إن سموّك أعجز من أن تدفع لي عملةً أسمى وأرفع من هذه العملة. وليس ثم كنز بالغ مابلغ من النفاسة يمكن إضافته إليها. في الواقع إن مادفعته هو أكثر من الكثير، ولذلك فأنا أشكر سموّك من أعماق قلبي.

(١٠٦) لقب شرف منح لـ(باندنللو). والتعريض بذلك يقصد منه السخرية.

أجاب الدوق على هذا بقوله:

- يغلب على ظني أنك تحسبني مفلساً لا أملك مايكفي لتسديد ثمنه. طيب! إني سأدفع لك أكثر من القيمة الحقيقية بكثير.

فأجبت:

- إني لم أتوقع أي مكافأة أخرى من سموك. وأنا أعدّ نفسي بأني قد إستوفيت أكبر المكافأة بما حكم لي به فنانو فلورنسا أولاً. وبهذا المكافأة في جيبي سأرحل من هنا في هذه اللحظة من غير عودة حتى الى المنزل الذي وهبته لي سموّك. والأمر سواء أوقع نظري على فلورنسا. أم توفاني الله دونها.

كنا إذذاك قد بلغنا (سانتا فيليچيتا Santa Felicita) والدوق في طريق العودة الى القصر. فإستدار نحوي بعد ثورتي هذه وقال وهو يتميز غيظاً:

- لن تبرح فلورنسا أبداً. وإحذر من إقدامك على هذا.

سرت في ركبه حتي بلغنا القصر وأنا أشعر ببعض خوف. وبعد أن إستقرّ به المقام، إستدعى سموّه المطران (برتولیني Bartolini) الذي كان رئيساً لأساقفة (پيزا). كما إستدعى السيد (پاندلفو دللاّ ستيفا Pandolfo della Stifa). وأمرهما بأن يقصدا (باچيو باندنللو) ويبلغاه عنه أن يقوم بفحص (پرسيوس) فحصاً دقيقاً شاملاً وتقدير ثمن له تبعاً لذلك لأنه يريد أن يدفع لي ثمناً عادلاً عنه. فإنطلق الرجلان الصادقان يبحثان عن (باندللو) وأبلغاه أمر الدوق. فقال إنه دقّق التمثال ملياً وهو على علم تام بقيمته. إلاّ أنه لايعتزم التدخل قطّ في كلّ ما يتعلق بي من شؤون بأي شكل كان بسبب جفاءٍ بيني وبينه حول مسائل قديمة.

فقال له النبيلان:

- قال الدوق إنك مأمور وعصيانك أمره قد يغضبه وعليك أن تضع ثمناً. وإن إحتجت الى يومين أو ثلاثة للتوصل الى رأي فلا بأس. وعليك بعد هذا أن تعلمنا بالثمن الذي تراه مناسباً.

أجاب (باندللو):

- سبق لي أن عاينتُ التمثال وفحصته فحصاً دقيقاً. ومادام الدوق قد أمر فلايسعني إلاّ الطاعة: إن التمثال جميل للغاية، دقيق الصنعة وهو في نظري يسوى ستة عشر ألف كراون بل وأكثر.

قام هذان الشريفان الصادقان بإبلاغ الدوق بالنتيجة. فإنزعج كثيراً ثم إنهما أبلغاني الحكاية كما وقعت. فعلّقت بقولي إني زاهد تماماً في ثناء (باندللو) الرجل الشرير الذي لم يسلم أحدٌ من لسانه الخبيث فنقلت كلماتي هذه الى الدوق. وكان هذا هو الباعث الذي حمل الدوقة على أن تنصحني بتفويضها لحلّ القضية. تلك هي الحقيقة بلا مماراة. وحسبي أن أضيف الى هذا انه من الخير لي لو أطلقت يد الدوقة. إذ أن ثمن التمثال في هذه الحالة سيدفع لي صفقة واحدة فوراً وبدون تقسيط فضلاً عن مكافأة أكثر بكثير من الثمن الأصلي.

أعلمني الدوق عن طريق محاسبه السيد (لوليو توريللو Lolio Torillo) بأنه يريد مني عمل عدد من

المناظر المحفورة على البرونز لبهو المرتلين في كاتـدرائيـة (سـانتا مـاريا دل فـيوري Santa Maria del Fiore)[١٠٧] لكن لمّا كان في ذلك الجزء من الكاتدرائية أعمال من صنع (باندنللو)، فقد كرهت نفسي تجميل صناعته الخرقاء بمجهوداتي. وإن لم يكن هو مسؤولاً عن تصاميم عمله لأنه أجهل خلق الله في فن الهندسة المعمارية. كان التصميم في الواقع من بنات أفكار الحفّار على الخشب (گويليانو باچيو دا انيـولو Guiliano Baccio d'Agnolo) الذي أتلف القبّة. وحسبي القول أنهـا لاتنمّ عن أي إبداع ولاتمتـاز بشيء من الفن مطلقاً. ولهذا كنت عـازفاً عن العمل بأي صورة. غير أني كنت لا أني أوكد لسموّه المعظم إستعدادي التام لتنفيذ أى عمل يكلفني به، وبناء على هذا ابلغ مجلس ادارة صيانة (سانتا ماريا دل فيوري) بالتعاون معي على أساس ان يدفع الدوق لي معاشي السنوي وهو مائتا كراون فحسب. في حين يزودني المجلس بكلّ ما أحتاجه خلاف ذلك من مصاريف ونفقات.

بعد هذا مـثلتُ أمام المجلس وأُبلغت بالتعليـمات التي أصدرها الدوق فخلت إني أستطيع شرح وجهات نظري بحرية وبيّنت لأعضاء المجلس كيف ستضيع مقادير كبيرة من البرونز بما لا طائل تحته فضلاً عن المبالغ الكثيرة التي ستُبدد فعلاً وفصّلت الأسباب بمنطق واضح وفهموني تماماً. قلت أولاً: إن الشكل الذي بُني به بهو المرتهلين كان خاطئاً من ألفه الى يائه. فـهو عـاطل عن الفن، مـخالف للمعقول. خال من أي جمال او سبق تصميم لا منطق فيه. وثانياً ان النقوش البرونزية البارزة يجب ان يختـار لها مستوى واطيء لتكون تحت خطّ النظر بمسافة كبيرة. كما كان يجب أن يعمل محلّ لتلقي الكلاب فضلاتها فيه إذ ستطغى القاذورات على المكان. ولهذا فإني أمتنع عن القيام بالعمل مهما بذل لي من ثمن ثم إستدرت قائلاً: إني ولأجل أن لا أبدد خير سنّي حياتي بالعبث الباطل ورغبة مني في إرضاء سموّ الدوق وخدمته من صميم قلبي بعمل شيء له. في حالة ما لوشاء الإفادة من جهودي. أرغبُ في أن يدعني أقوم بصنع الباب الرئيس لسانتا ماريا دل فيوري. إذ سيكون أثراً فنياً رائعاً تتملاّه كلّ عين، فيرفع من قدر سموّه بشكل لايدانيه فيه أي أثر آخر. وزدت على هذا قولي إني سأرتبط بعقد كتابي مشروط عليه بأني لن أتقاضى أى شيء لقاء أتعابي إن لم أتفوق في بابي على باب سان جيوڤاني[١٠٨] الذي بلغ الغاية في الجمال، فلن أتقاضى شيئاً عن أتعابي. أما اذا كان كما

(١٠٧) تعتبر هذ الكاتدرائية أروع صرح فنيّ في لورنسا وواحدة من أجل الآثار التاريخية والدينية في العالم. بدء تشييدها في حدود العام ١٢٩٦. ثم تعاورتها أيادي فطاحل المهندسين المعماريين وكان آخرهم وهو الذي أكملها في ١٤٣٦ (فيليپو برونديلچي) قد سلخ فيها (١٤) سنة من حياته. ثم إفتتحها الپاپا يوجين الرابع وسمّاها بهذا الإسم. يبلغ طولها (١٥٠) متراً وعرضها في أوسع موضع (١٥٠) متراً وعرضها في أوسع موضع (٩٦) وإرتفاعها في أعلى نقطة (٩٠) متراً. تكاد لاتجد فناناً فلورنسياً شهيراً إلاّ وقد ترك فيها أثراً له فهي أشبه بمحتف ضخم حاشد من التماثيل والنقوش والرسوم.

(١٠٨) المقصود به ولاشك الباب الشرقي لكنيسة القديس يوحنا المعمدان المسماة الآن بالكنيسة المعمدانية. وهو الباب المواجه لكاتدرائية سانتا فيوري. إنها أعتق بناء أثري في فلورنسا. سمّاها دانتي في كوميدياه الآلهية il mio bel san jiovani وفيها تعمّد وهي مثمنة الشكل. ولاشك في ان چلليني كان يقصد مباراة هذا الباب الذي يعد آية من آيات الفن بحيث اطلق عليه ميكالنجلو عبارة (باب الفردوس). وهو الإنجاز الرئيس للفنان (لورينزو گيبرتي)=

وعدت فسأرضى بأن يقدر ثمنه ثم يخصم ألف كراون من التقدير الذي سيحكم به أعضاء النقابة.

سُرّ أعضاء المجلس بما قلت. وقصدوا الدوق لبحث الموضوع. وقد خُيّل لأحدهم وهو (پييرو سالڤياتي Piero Salviati) أن الإقتراح سيكون موضوع سرور الدوق فكان واهماً. إذ ردّ سموه قائلاً:

- إن (بنڤنوتو) لاينفكّ يريدني أن أفعل خلاف ما يراد منه عمله.

وبهذا إنصرف (پييرو) دون التوصل الى قرار.

بُلّغت بما كان. فإنطلقت فوراً لمقابلة الدوق. فوجدته منفعلاً بعض الشيء. لكني رجوته أن يتفضل عليّ بالإصغاء لما سأقول، فوافق. فبدأت الحكاية من أوّلها وأوردت مجموعة كبيرة من البراهين الدامغة والجذابة، محاولاً إفهامه الحقيقة، مبيناً له كثرة النفقات وكيف أنها ستضيع هباءً. ثم هدّأت من غضبه بقولي إن لم يشأ قيامي بصنع الباب. فهنالك منبران ينقصان بهو المرتلين في الكاتدرائية وهما عملان في غاية الأهمية وسيرفعان من قدر سموّه. وأردفت قائلاً إني سأعمل لهما عدداً كبيراً من المناظر البرونزية البارزة بنقوش وتهاويل بديعة دقيقة. فأمرني بعمل بعض التصاميم.

قمت بعمل عدة نماذج وإستغرق مني ذلك وقتاً ومجهوداً. وبين التصاميم واحدٌ ذو ثمانية أضلاع بذلت فيه عناية خاصة وبدا لي أنه أنسب وأوفى بالغرض. ثم حملتها الى القصر عدة مرات دون أن أوفق في عرضها. وبعدها فهمت عن طريق السيد (چيزاري) الموكّل بخزانة الثياب ان سموّه يرغب في أن أتركها له هناك. ثم إطلع عليها وتبين لي أنه إختار أقلّ التصاميم جمالاً. بعد ذلك أرسل في طلبي ذات يوم. وفي أثناء بحثنا التصميم أشرت الى أن التصميم المثمّن هو أليق وأنسب ودعمت قولي بالبراهين والحجج ونوهت بجماله الذي يفوق البقية. فقال انه يريد ان يكون مربعاً فهو المفضّل عنده. ثم واصل حديثه معي وقتاً ملياً بكل إيناس. إني لم أتردد في شرح ماوقع لي حرصاً على سمعة الفن ومكانته الرفيعة. من المحتمل أن الدوق أدرك صواب رأيي. لكنه أبى إلاّ أن يصرّ على إجراء مايريد وقد إنتظرت طويلاً دون أن تطرح القضية على بساط البحث.

في ذلك الحين جيء بكتلة ضخمة من الرخام لنحت تمثال (نبتون) منها عن طريق نهر (آرنو) الى (گريڤي Grievi) بالطريق المحاذية لـ(پوجيو آكايانو Ppggio a Cajano) وتمّ نقلها على هذه الصورة السهلة بإختيار طريق مستوية[١٠٩] وكانت قد تُركت هناك فذهبت لمعاينتها. ومع اني علمت أن الدوقة قد

=الذي اودع فيه عصارة عبقريته وإشتغل فيه (٢٧) عاماً (١٤٢٥-١٤٥٢). وصبه بالبرونز ويتكون من مصفقين في كلّ مصفق خمس مناظر بارزة إقتبس مواضيعها من قصص شهيرة في التوراة. ويحيط بكل مصفق اطار تحتشد فيهما صور صغيرة للقديسين. اعيد طلاء هذا الباب مؤخراً فعادت اليه روعته السالفة. وكان لايزال قبلة السياح وعشاق الفن وموضوع دراستهم.

(١٠٩) كان الرخام يستخرج من المقالع في الجبال الواقعة جنوب فلورنسا حيث منابع نهر (آرنو) الذي يصدر منها وينحدر شمالاً حتى فلورنسا ويصب في بحر ليگوري بالقرب من پيزا. ويظهر أن مجرى هذا النهر كان يصلح لنقل قطع الرخام الكبيرة الى مسافة ما وبعدها ينقل من العوّامات الى الطرق البرية. والموضعان اللذان ذكرهما چلليني في المتن لا أثر لهما في خرائط إيطاليا الحديثة. إلا أن الموضع الأخير (پوچينو اكايانو) كما يبدو هو موضع في ضواحي فلورنسا أو قريب منها.

منحتها (باندنللو) تكريماً خاصاً له. فقد أدركني الأسف لا حسداً لـ(باندنللو) بل إشفاقاً على الرخامة السيئة الحظّ. إن المرء لايتمالك نفسه فيظهر التأسف والتفجع على شيء ما قُدّر له أن يؤول الى نهاية سيئة، ويحاول إنقاذه من هذه الخاتمة فيقع بسبب ذلك في مآزق أسوأ من النهاية التي توقعها لذلك الشيء. وهذا ينطبق على المصير الذي قدّر للرخامة، عندما وقعت بالأخير من نصيب (بارتولومو آمّاناتي Bartolomio Ammanati)[١١٠] الذي سأقول عنه الحق في الموضع والوقت المناسب.

بعد أن أجلت نظري في الرخامة البديعة، قمت بأخذ قياساتها من سائر جهاتها. وبعد عودتي الى فلورنسا عملت لها عدداً من التصاميم بنسب وأبعاد صحيحة. وبعد ذلك شددت الرحال الى (پوجيو آكايانو) حيث الدوق والدوقة والأمير الصغير إبنهما. وجدتهم جميعاً على مائدة الطعام، والدوق والدوقة يأكلان بمفردهما، لذا رحت أتحدث الى الأمير وطال بنا الحديث حتى سمع الدوق صوتي من الغرفة المجاورة فإستدعاني بكلّ لطف. فدخلت عليهما وتلطفت الدوقة بالحديث معي بأسلوبها الساحر، ثم وجدت فرصتي المناسبة فأدرت الحديث تدريجاً الى موضوع الرخامة البديعة التي عاينتها. وأخذت أذكّر الدوقة بأسلافها وكيف أنشأوا مدرستهم الرفيعة وأعلوا من شأنها بتشجيعم الفنانين وإنمائهم روح المنافسة بينهم، وبهذه الوسيلة تم إبداع القبّة الرائعة والأبواب البديعة التي تشاهد الآن في بيعة (سان جيوڤاني) فضلاً عن مختلف البيع الأخرى الممتازة والتماثيل التي اتحفوا بها المدنية منذ العصور الغابرة وظفروها على هامتها كالتاج الوهّاج. لم تدعني الدوقة أسترسل فقاطعتني وهي في أشدّ حالات الإنفعال قائلة انها تدرك جيداً ما أرمي اليه. ومنعتني منعاً باتاً من ذكر شيء عن الرخامة بمحضر منها مرّة أخرى. قائلة إن ذلك يورثها أشدّ الإنزعاج. فقلت:

- إذن فأنا أضايقك عندما اعلن رغبتي في مصلحة سموكما وترتيب الأمور بشكلها الصحيح المرضي؟ ألا فكّري ياسيدتي ماضرّ سموكما المعظمين لو وافقتما على أن يقوم كلّ نحات بعمل تصميم لـ(نبتون)؟ حتى وإن كان قراركما النهائي ان تكون من نصيب (باندنللو)، فإنّ هذا سيدفعه الى بذل المزيد من الجهد لعمل تصميم متقن وأكثر دقة مما لو كان على يقين بأنه سيد الميدان بلا منافس- يدفعه الى ذلك حرصه على سمعته. بهذه الوسيلة ستتوصلان الى خير النتائج ولن تخيبا آمال الفنانين العباقرة بكما. وستتبيّنان من هو المبرّز السبّاق في ممارسة هذا الفن السامي الممتاز على البقية بالمهارة والإبداع الذاتي، وبذلك سيعلم الملأ أي نصيرين للذوق السليم ومتفهمين للفن أنتما؟

أجابت الدوقة وقد بلغ الغضب بها أقصاه، إني أضايقها بكلامي واثقل عليها الى حد كبير. وقد

(١١٠) مهندس ونحّات فلورنسي (١٥١١-١٥٩٢) فنان قدير من مبرزّي جيله ولد في (سْڤتيانو). وإستخدمه أمراء آل مديتشي. وآثاره توجد اليوم في البندقية وپادوا وروما، فضلاً عن أشغاله في فلورنسا. ومن أشهر آثاره الهندسية جسر الأرنو الشهير الذي نُسف في ١٩٤٤ واعيد ترميمه في ١٩٥٧. مازالت نافورة (نبتون) وتمثاله من عمل هذا النحات يشاهد في فلورنسا. وهو التمثال الذي نجح في الفوز بعمله كما سيأتي في المذكرات. ومع أن چلليني يبدي هنا كثيراً من التحيّز في الحكم على مقدرة (آمّاناتي). إلا أن حكمه على التمثال نفسه يكاد يكون صائباً. فهو بنظر أهل الفن المعاصرين لايعتبر من الآثار المتقنة الخالية من العيوب.

صممت تصميماً لارجعة فيه على أن تكون الرخامة من حظّ (باندنللو) ثم أضافت:
- سَل الدوق عنها. فهو أيضاً عازم على إعطائها (باندنللو).
ظل الدوق لائذاً بالصمت أثناء كلام الدوقة، فلما توجهت إليه قال:
- عشرون عاماً مرّ على قطع هذه الرخامة من المقطع خصيصاً لـ(باندنللو)، فهي له.
فأسرعت أقول للدوق:
- فليسمح سموّك العظيم لي ببعض الكلمات المقصود بها خدمتك.
قال لامانع لديه من قول ما أريد قوله وانه سيصغي اليّ.
قلت:
- إذن فعليّ إبلاغك يامولاي بأن تلك الرخامة التي نحت منها باندنللو تمثاله (هرقل وكاكوس) كانت قد جُلبت خصيصاً (لميكالنجلو بوناروتي) الألمعي المفلِق. فوضع لها تصميماً بهيئة (شمشون) والمجموعة تتألف من أربعة شخوص بالتمام. ولو أتيحت الفرصة له وواتته الظروف لأنتج منها أعظم أثر. في حين إن صاحبكم (باندنللو) لم ينحت منها غير شخصين مشوهين قبيحين. وفنانو فلورنسا مازالوا الى يومنا هذا يأسفون للخطأ الفظيع الذي ارتكب بحقّ تلك الرخامة النفيسة. واعتقد أن أكثر من ألف قصيدة هجاء وسُخر علقت على هذا الإخفاق الفني الذريع. واني لعلى يقين بأن سموك يتذكر ذلك جيداً. لهذا السبب يامولاي الأجلّ أنا أربأ بك ان تفرط بمثل هذه الرخامة التي تفوق سابقتها نفاسة أن تمنعها عن فنان خبير يجيد نحتها، وإن كانت مخصصة لـ(باندنللو) الذي سيتلفها حتماً فأنت لست كأولئك الذي كانوا في مركز المسؤولية وأدى بهم جهلهم الى حرمان (ميكالنجلو) من تلك الرخامة التي اقتلعت له، فدفعوا بها الى (باندنللو) فأتلفها. ألا فكر ملياً ياسيدّي. واحكم بأن يقوم كلّ من يريدها لنفسه- بعمل تصميم. وبعد ان تجتمع لك طائفة منها اعرضها على المدرسة[١١١]. وبعد ان يستمع سموّك الى رأيها ستعرف بحكمك الصائب كيف تختار الأفضل. وعندها لن تبدد مالك ولن تخيب آمال عصبة الفنانين النوابغ الذين لانظير لهم في العالم اليوم، فسيضيفون مجداً الى مجدك.
بعد أن أنصت الدوق اليّ بإهتمام ولطف نهض تاركاً المائدة وهو يقول:
- إذهب وإعمل تصميمك يا بنڤنوتو واربح القطعة الرخامية. فما قلته هو الحقّ وإني بذلك لعليم.
أظهرت الدوقة إشارات تنمّ عن الهديد والوعيد وراحت تتمتم بغيظ وحنق ما لا أدري. أما أنا فقد إستأذنت وعدت الى فلورنسا وأنا أرى الطريق دهراً، لاتفرغ حالاً الى التصميم.
بعد عودة الدوق قصد داري دون إخطار. فأريته نموذجين صغيرين يختلف أحدهما عن الآخر فإمتدحهما لكنه خصّ أحدهما بأكثر إعجابه، وطلب منيّ أن أضع اللمسات الأخيرة عليه قائلاً إن ذلك سيكون من صالحي. وكان قد إطلع على نموذج (باندنللو) وعلى أُخر غيره لعدد من النحاتين. إلاّ أنه خصّ تصميمي بالمزيد من الثناء. أو هذا على الأقل مانقله العديد من الحجّاب والمرافقين الذين

(١١١) أي نقابة أو جمعية الفنانين الفلورنسيين.

سمعوا ثناء الدوق.

ومما أذكر من الوقائع حول هذا الموضوع، حادث له صلة وثيقة به. إتفق أن كردينال (سانتا فيوري) قدم الى فلورنسا فأخذه الدوق الى (پوجيوكايانو) وفيما هو في عرض الطريق وقع نظر الكردينال على الرخامة فإمتدحها وأظهر إعجابه الشديد بها ثم سأل الدوق عمّن كلّف العمل بها من المثّالين؟

فأجاب الدوق دون توقف:

- بنڤنوتو، فقد عمل تصميماً لها في غاية الروعة.

نقل اليّ هذا الحديث أناس موثوق بهم. وعلى إثر سماعي ذلك إنطلقت لمقابلة الدوقة حاملاً معي بعض الحلي الجميلة. فأعجبتها كثيراً ثم سألتني بمَ أنا مشغول. فقلت:

- اني أقوم الآن يا مولاتي بعمل نموذج يتفق ومزاجي. عملٌ مجهدٌ للغاية لم يسبقني اليه أحدٌ. اني أنحت مجسماً للمسيح على الصليب بالحجم الطبيعي من رخام أبيض ناصع كالثلج فوق صليب من الرخام الأسود.

فسألتني فوراً عما أنتويه له، فأجبت:

- بصراحة ياسيدتي. إني لا أنوي بيعه ولو بألفي دوقية ذهبية. فأنا لا أعتقد أن أحداً صرف مجهوداً مثلما صرفت فيه. كما اني لم أرغب في أن أتعهد بصنعه لشخص ما خشية أن لا أوفق به ويسيء الفشل الى سمعتي. لقد إبتعت قطعتي الرخام من حرّ مالي. وإستخدمت لمعاونتي شاباً طوال سنتين وأجرته مع ثمن الرخام والحديد جمعت كلها ثلاثمائة كراون ذهباً. ولهذا قلت لن أتنازل عنه بأقل من ألفين. لكن لو أن سموّك أنالتني فضلاً لا غبار فيه ولا ضرر يتأتى منه، فإنه يسرّني جداً أن أقدمه هدية خالصةً لك. كل ما أطلبه من سموّك هو أن لا تقفي ضدي في قضية ترجيح التصاميم التي كلفني سموّ الدوق بها لتمثال نبتون من الرخامة الكبيرة.

فأجابت بإنفعال شديد:

- إذن فمعارضتي أو مساندتي لا وزن لهما عندك؟

أجبت قائلاً:

- بالعكس! إني لعظيم الإعتبار لكليهما يا سيدتي. وإلاّ لما عرضت عليك هدية ذات إعتبار عندي لا يقلّ ثمنها عن ألفي دوقية. غير إني واثق من الدراسات والتصاميم المضنية الدقيقة التي عملتها للتمثال بحيث صرت كبير الأمل بالفوز في هذه المسابقة حتى وإن كان مُنازلي (ميكالنجلو) العظيم الذي تعلمت منه وحده لا من غيره كلّ ما أملكه من معرفة. ولعمري إني سأغتبط لو شارك وهو الواسع الإطلاع بعمل تصميم لا أولئك الجهلة الذين الذين لا يملكون من المعرفة إلاّ النزر فبمنافستي لأستاذي الجليل سأنال درجةً رفيعة من الشرف في حين أني لن أكسب شيئاً من مباراتي لهؤلاء الآخرين.

بعد أن فرغت من أقوالي هذه نهضت وتركت مجلسها وهي غاضبة.

عدت الى عملي في التصميم حتى إنتهيت منه. وجاء الدوق لمشاهدته يصحبه سفيران، أحدهما

مرسل من دوق (فرارا) والثاني من مجلس حكام (لوكّا). سُرّ سموه بالنموذج وقال للنبيلين المرافقين:
- حقاً ان (بنڤنوتو) جدير بالفوز.

وشاركه السفيران وإرتفعا بالثناء الى عنان السماء لاسيما سفير (لوكّا) الذي كان من مشاهير العلماء. وكنت قد تأخرت عنهم مسافةً لأتيح لهما مجالاً لقول مايريدون لكني وبعد سماعي هذا التقريظ تقدمت من فوري ووجهت كلامي الى الدوق قائلاً:

- مولاي. إليك خطوة ممتازة أخرى يخطوها سموك: وهي أن تأمر كل راغب في الرخامة أن يصنع أنموذجاً من الطين بنفس الحجم الذي تتسع له الرخامة. وعندئذ سيكون سموك في أفضل موقف للحكم فيمن يستحقها. وإسمح لي أن أضيف: لو أعطى سموك الرخامة لمن لايستحقها فلن يلحق ضرر بمن يستحقها قدر ما يلحق بك. لأنك ستخسر مالياً، وسيصيبك الخجل. في حين لو عكست الآية وأعطيتها لمن يستحقها، فستنال شرفاً عظيماً وسجني ربحاً من المال الذي تنفقه. كما سيدرك أهل الفنّ بأنك خبير وصاحب ذوق.

هزّ الدوق كتفيه غير مكترث وسار مبتعداً إشارة الى نهاية الزيارة. وعندها قال له سفير (لوكّا):
- مولايْ، انت رجلك (بنڤنوتو) هذا رجل فظيع!

اجاب الدوق:
- بل واكثر مما تتصور بمراحل. ما كان افضل له لو هو أقلّ من هذا، اذ لحظي بالكثير مما فقده.

هذه العبارة نقلها لي السفير نفسه بالحرف الواحد كأنما يريد ان ينصحني لأغيّر من أسلوب تعاملي. فعلّقت على هذا بقولي: القضية هي اني متعلق بسيدي وخادمه المحبّ المخلص. لكني لا اتقن اسلوب الملق والمداهنة.

ما مرّت أسابيع قلائل حتى حضرت (باندنللو) الوفاة. وقيل ان العلّة التي اوردته حتفه هي الصدمة التي اصابته بعد يأسه من الحصول على الرخامة، ناهيك عن فسقه وفجوره المفرطين. كان (باندنللو) قد سمع بالصليب الذي ذكرت فيما سبق قيامي بنحته. فأسرع يباشر العمل في نحت الـ(پيتا Pieta)[١١٢] من قطعة رخام. وتشاهد الآن في كاتدرائية (انونزياتا)[١١٣]. أما أنا فكنت إعتزمت إهداء صليبي لكنيسة (سانتا ماريا نوڤللاّ Santa Maria Novella)[١١٤] فثبتتّ الكلاليب التي

(١١٢) اي تمثال العذراء مريم وهي تحتضن جسد المسيح. في الواقع ان باندنللو مدفون في كاتدرائية الأنونزياتا وعلى قبره قطعة رخام ذات كتابة بارزة تشير الى ذلك. لقد تفنن النحاتون في نحت تماثيل للعذراء في هذا الموقف. وعلى رأسهم (ميكالنجلو) الذي يرى تمثاله (ألپيبيا) الآن في كاتدرائية (سانتا فيوري). وقد نحته ليوضع على ضريحه إلاّ أنه توفي في (١٥٥٥) ولم يتمه وهو اهم أثر في الكاتدرائية.

(١١٣) بنيت في حدود (١٢٥٠) واعيد بناؤها في اوسط القرن الخامس عشر.

(١١٤) بوشر ببنائها في اواسط القرن الرابع عشر واروع ما فيها الرخام المستعمل في تزيينها من اللونين الأبيض والأخضر ويشاهد فيها أروع ما خلّفه رسّامو ونحاتو الرينسانس من تماثيل وصور تمثل مناظر دينية. وهي مخصصة لأخوية الرهبان الدومينيكان وهناك دير ملحق بها. والى هؤلاء رجع چلليني يفوضهم في الموضوع.